مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الأسطورة والتخييل الأدبي: رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح أنموذجا

Myth and Literary Fiction
Al-Habib Al-Sayeh's Novel "Tilka al-mahabba" as a Model

سامية إدريس

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر

samia.idris@univ-bejaia.dz

تاريخ الإرسال: 2025/04/21 تاريخ القبول: 2025/07/12 تاريخ النشر: 2025/09/30

الملخص:

يلعب الخيال دورا حاسما في عملية المعرفة، وقد تجسد في الأسطورة التي شكلت أولى نوازع العقل البشري، واستمر حضور الأسطورة في مختلف أشكال الكتابة الأدبية، مما دفع المهتمين بالنقد والنظرية الأدبية إلى الاهتمام بها، والسعي إلى الكشف عن قوانين المخيلة، واشتغال التخييل الأدبي بناء على أنماط عليا وثيمات متكررة ومتحولة إلا أنها ذات أصل واحد هو الأسطورة .

يهدف هذا المقال إلى تبيان أهمية الأسطورة في عملية التخييل الأدبي، ودورها في فهم تشكّل واشتغال الإبداع. وفيه نستعرض باقتضاب مفهوم الأسطورة، وعلاقتها بالأدب، ونرصد انتقال الأسطورة البدائية من سجل المشافهة إلى سجل الكتابة، مع ما يتضمنه ذلك من تحويرات عليها، لا تطال نواتها الأسطورية. وقد وقع اختيارنا على رواية "تلك المحبة" للروائي الجزائري المعاصر لحبيب السايح لنستدل بها على أهمية الأسطورة في فعاليات التخييل الأدبي، حيث قام بمحاكاة نمط أساطير التأسيس، والأسطورة الكوسمولوجية، ومارس عليه استبدالات وتنويعات أثثت الفضاء الرمزي للرواية، وربطت أدرار وحواضرها الثلاث بذاكرة تاريخية وأسطورية تعود بنا إلى العصر الأمومي الأول.

الكلمات المفتاحية:

الأسطورة، التخييل الأدبي، الأنواع الأدبية، الأنماط العليا، رواية "تلك المحبة".

***Abstract*:**

Imagination plays a crucial role in the process of knowledge. It is embodied in myth, which constitutes the first impulse of the human mind. The presence of myth has been denounced in various forms of literary writing, which has prompted those interested in criticism and literary theory to pay attention to it and seek to uncover the laws of imagination and the work of literary fiction based on archetypres and recurring and changing themes, but they have a single origin: myth.

This article aims to demonstrate the importance of myth in the process of literary fiction and its role in understanding the formation and functioning of creativity. It briefly reviews the concept of myth and its relationship to literature, and examines the transition of primitive myth from oral to written form, along with the modifications this entails that do not affect its mythical core.

We have chosen the novel "Tilka al-mahabba" by the contemporary Algerian novelist Lahbib Sayeh to demonstrate the importance of myth in the activities of literary fiction. He imitated the style of founding myths and cosmological myths, and applied substitutions and variations to them that furnished the symbolic space of the novel, and linked Adrar and its three capitals to a historical and mythological memory that takes us back to the first matriarchal era.

***Keywords*:** *Myth; Literary fiction; Literary genres; Archetypes; «Tilka al-mahabba » novel.*

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

1. مقدمة:

يلعب الخيال دورا حاسما في عملية المعرفة، إذ يتجلى في أبسط مستوياته التصور الذي يمكن الإنسان من تكوين أفكار عن العالم المادي، فما الأفكار إلا نسخ أو خيالات عن الأشياء، كما يظهر الخيال في عملية التذكر التي تسمح لنا باستحضار الخبرات السابقة وربطها بزمانها ومكانها، وبتراكم هذه االخبرات يجد الخيال مادة خصبة ينفلت فيها من قيود الزمان والمكان ويلج إلى آفاق أرحب. يحدد الخيال إذن بوصفه ملكة من ملكات العقل البشري وإحدى العمليات الذهنية التي تتولد عنها الصور باختلاف أنواعها وعلاقاتها بالواقع. إن الخيال فعالية راسخة في مظاهر الثقافة البشرية بداية من الأسطورة وصولا للأدب في تشكيلاته المعقدة.

لقد كانت الأسطورة مغامرة العقل الأولى، وفيها تكثفت أبعاد الوجود الإنساني، وضمنها تشكلت أولى نوازع المعرفة، فالأسطورة تعبير عن خبرة متكاملة؛ فلسفية، روحية، دينية وفنية وحتى علمية.

ازدهرت دراسة الأسطورة في عصرنا ضمن تخصصات معرفية كثيرة، ومن الجدير بالذكر أنه «لم تظهر الدراسة الدقيقة المخصصة لجمع وتفسير الأساطير في العالم الغربي إلا في الجزء الخير من القرن الثامن عشر» [1]، رغم تعاطي الفلاسفة والمفكرين معها منذ اليونان، وقد استقلت دراستها بعلم خاص هو "الميثولوجيا"، التي تدل كذلك على مجموعة الأساطير الخاصة بشعب معين، يتأسس هذا العلم على فرضية انتظام الأساطير في كلية شاملة، بحيث تنتج الشعوب بوصفها مجموعات ثقافية أو مجموعة أساطير تروي رؤيتها للوجود بشكل عام، وقد اهتم علماء الفولكلور والأنثروبولوجيون اهتماما كبيرا بهذه المرويات التي ندعوها أساطير، لما لها من أهمية في فهم الإنسان البدائي، بل والحديث كذلك، ومن خلال استقراء ميثولوجيا الشعوب من جهات العالم الأربع ثبتت فرضية الأساس المشترك للثقافة البشرية، ووحدتها بالنظر للتشابه المذهل بين ميثولوجيات الأمم المختلفة في بيئاتها ولغاتها وأنماط معيشتها.

التفت المهتمون بالنقد وبالنظرية الأدبية إلى حضور الأسطورة في مختلف أشكال الكتابة الأدبية، وتحسسوا دورها الخطير في قيام "النظام الأدبي"، واعتمدوا عليها للكشف عن قوانين المخيلة واشتغال التخييل الأدبي بناء على أنماط عليا وثيمات متكررة ومتحولة إلا أنها ذات أصل واحد هو الأسطورة.

من هذا المنطلق نتساءل:

- ما علاقة الأسطورة بالأدب؟
- وما مدى ارتباط المخيلة البشرية التي تتجلى في الأدب ببداياتها الأسطورية المحضة؟

يهدف هذا المقال إلى تبيان أهمية الأسطورة في عملية التخييل الأدبي، ودورها في فهم تشكّل واشتغال الإبداع. وقد عمدنا في خطوة أولى إلى عرض إجمالي لمفهوم الأسطورة بمعناها الواسع، وإظهار علاقتها بالأدب

المجلد: (17) | العدد: (02) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 410–420 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وبالأنواع الأدبية، ووقع اختيارنا، في خطوة ثانية، على رواية "تلك المحبة" للروائي الجزائري المعاصر لحبيب السايح لنعاين من خلالها فعاليات التخييل الأدبي في علاقته بالأسطورة.

2. في تعريف الأسطورة:

تذهب الدلالة اللغوية لكلمة "أسطورة" في اللغة العربية، وهي مفرد أساطير، إلى أنها كل ما لا يمت للحقيقة بصلة، إذ تدل على الأباطيل والأكاذيب التي لا أصل لها ولا فصل، ففي لسان العرب «الأساطير: الأباطيل، والأساطير أحاديث لا نظام لها واحدها إسطار وإسطارة، بالكسر، وأسطير وأسطيرة، وأسطور وأسطورة، بالضم (...) وسطرها ألفها، وسطر علينا: أتانا بالأساطير. الليث: يقال سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث شبه الباطل، يقال: هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف»[2]، وقد وردت اللفظة في القرآن في تسعة مواضع، على لسان مشركي في سياق محاجاتهم للرسول، والتشكيك في صحة نسبة القرآن الكريم إلى البارئ عز وجل، وجاءت دلالتها في كتب التفاسير[3] على نفس معناها اللغوي، فمفهوم الأساطير في القرآن « لا يخرج عن الأباطيل والأكاذيب، والترهات، والخرافات، والأحاديث التي لا فائدة فيها، ولا طائل تحتها، والغامضة، والتي لا أصل لها، والأخبار التي لاحكمة فيها ولا موعظة، وليس فيها شيء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق، والقصة الباطلة،ولا شك أن هذا المفهوم بعيد كل البعد عن المفهوم الأنثروبولوجي الحديث للأسطورة»[4]، وتستعمل كلمة أسطورة بمعناها الحديث كترجمة للمصطلح الأجنبي Mythologie، المشتق بدوره من الأصل اليوناني Myth، «فكلمة "أسطورة"، بالمعنى الحرفي اليوناني، تنطبق على كل حكاية تروى، سواء كانت موضوع تراجيديا أوعقدة كوميديا أو قصة خرافة من ايزوب. إن كلمة "أسطورة" تعارض كلمة "العقل ("لوغوس" اليونانية)، كما كلمة خيال تعارض كلمة منطق، أوكما الكلمة التي تروي، تعارض الكلمة التي تبرهن، من هنا، إن كلمتي "لوغوس" (العقل)، و"ميثوس" (ما يتناقى والعقل)، هما نصفا اللغة، وهما وظيفتان أساسيتان ("ميثوس" و"لوغوس" = ميثولوجيا) من حياة الفكر» [5]. وقد قيل الكثير في تعريف الأسطورة، وأهم ما قيل حول ذلك هو صعوبة وضع تعريف نهائي لها، واختلفت تعريفاتها وتنوعت بتنوع وجهات النظر التي تصوغ موقف الدارسين للأسطورة، لكننا لذلك لن نسترسل في عرض تعريفات الأسطورة بما يخرج بنا عن أهداف هذا المقال، ولنكتفي بما يعتبره مرسيا الياد Mircea Eliade أوسع تعريف لها؛ « الأسطورة تروي تاريخا مقدسا؛ تروي حدثا جرى في الزمن البدئي، الزمن الخيالي، هو زمن "البدايات". بعبارة أخرى، تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق في أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون cosmos مثلا، أو جزئية كأن تكون جزيرة أونوعا من نبات أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة. إذن، هي دائما سردٌ لحكاية "خلق": تحكي لنا كيف كان انتاج شيء، كيف بدأ وجوده»[6]. أما الوظيفة الرئيسية للأسطورة فهي « الكشف عن نماذج مثالية

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

لجميع الطقوس وجميع أوجه النشاط البشري المحملة بالمعنى، كالغذاء والزواج والعمل والتعليم والفن والحكمة »[7]. وهذا ما يسلمنا للحديث عن مظاهر العلاقة بين الاسطورة والأدب.

3. علاقة الأسطورة بالأدب:

لا تحتاج العلاقة بين الأسطورة والأدب إلى إثبات، بقدر ما تحتاج إلى تبيان أوجه هذه العلاقة ومواطنها، فقد اتفق الباحثون على وجود تماثل بين الأسطورة والشعر، لكن في حين يذهب بعضهم إلى حد المطابقة بينهما، يتحفظ آخرون حول هذا الأمر، مفضلين الحفاظ لكل منهما على كيان مستقل.

يؤكد ريموند تروسون Raymond Trousson في كتابه (المواضيع والأساطير) «هناك نوع من التطابق بين الأسطورة والأدب لأن الميثولوجيا الإغريقو–لاتينية – التي هي منبع الأسطورة الأساسي – قد وصلت إلينا في شكل نهائي، أي أدبي»[8]. يرفض أليكسي لوسيف في كتابه "فلسفة الأسطورة" الإقرار بالتطابق بين الأسطورة والشعر (الأدب)، رغم أنه يعترف أن أوجه التماثل بينهما أكثر بروزا من أوجه الاختلاف، حيث يعرض ملامح التماثل الرئيسية بينهما في مجموعة من النقاط على رأسها كون كل من الأسطورة والشعر أشكالا تعبيرية تتمتع بالحيوية والعمق، كما أنه «من جهة التعبير، أي الأخطوطة والمجاز والرمز، لا يمكن رسم حدود فاصلة بين الميثولوجيا والشعر، فالصورة الميثولوجية كذلك الشعرية يمكن أن تكون أخطوطة ومجازا ورمزا»[9]، والنقطة الثانية تتمثل في "ثقافية" كل منهما على غرار جميع الفنون، «وهكذا فنحن نرى بين الميثولوجيا والشعر ذلك التماثل الجذري المتمثل في أنهما يكونان بطريقة التعبير عن موضوعهما وطريقة تشكيله، بمثابة فصول **"تعبيرية"** تعد في الوقت نفسه **تعبيرية ثقافية**، أي أن فهمها الخاص للأشياء يقود إلى إدخالها في وسط ما حيّ موحٍ، بغض النظر عن طبيعة هذه الأشياء ذاتها»[10]. أما النقطة الثالثة من أوجه التماثل فهي أن «الوجود الشعري كما الوجود الميثولوجي وجود مباشر وليس وجودا مستنتجا. لا حاجة بالصورة في الشعر وفي الميثولوجيا إلى أي نظام منطقي، أوغلى أب علم أوأية نظرية عموما»[11]، أما النقطة الأخيرة من سمات التماثل فيصطلح عليها بالانفصال، بمعنى أن كل من الميثولوجيا والشعر يثيران الانفعالات، لكن ليس نحو أشياء قائمة بعينها، وإنما نحو مدلولات وأشكال محددة، حيث تنسحب الأشياء والحوادث والشخصيات من عالم الواقع، وتُقتطع منها لتشكل لنفسها وجودا خاصا ضمن الشكل التعبيري–الثقافي والمباشر في الميثولوجيا والشعر.

عند هذه النقطة يضع أليكسي لوسيف الحد الأساسي الفاصل بين الميثولوجيا والشعر، فنمط الانفصال الذي تحققه الميثولوجيا عن الواقع العياني –إن صح التعبير– مختلف عن ذلك الذي يخلقه الشعر. إن نمط انفصال الأسطورة ومفارقتها للواقع لا يمنع «أن تكون بالمعنى الحرفي واقعا حيا، في الوقت الذي يتمثل فيه انفصال الشعر والفن عامة، في أنهما لا يقدمان أية أشياء واقعية، إنما صور الأشياء وهيئاتها الموجودة بطريقة ما خاصةٍ تميزها عن الوجود العادي للأشياء»[12]، كما يضيف أن بوسع الشعر أن يستغني عن الأسطورة، في حين لا يكون الخيال

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الأسطوري إلا خيالا شعريا، وقد يكون هذا من بين الأسباب التي دفعت بعض الدارسين إلى الجمع بين نشأة الشعر ونشأة الأسطورة ضمن اللحظة نفسها.

تبرز العلاقة بين الأسطورة والأدب بوضوح أكبر من خلال الأنواع الأدبية وفي مقدمتها، كما أسلفنا، الشعر، «ولعلّ من أبرز الصلات التي تقيمها الأسطورة مع الشعر، أو التي يقيمها الثاني مع الأولى، هو أنّ لكليهما جوهراً واحداً على مستويي اللغة والأداء. فعلى المستوى الأول يشترك الاثنان في تشييدهما لغة استعارية تومئ ولا تفصح، وتلهث وراء الحقيقة من دون أن تسعى إلى الإمساك بها، ويتجلّى الثاني من خلال عودة الشعر الدائمة إلى "المنابع البكر للتجربة الإنسانية، ومحاولة التعبير عن الإنسان بوسائل عذراء لم يمتهنها الاستعمال اليومي"[12].

على النحو نفسه تتجلّى علاقة الأسطورة بـــ"**الملحمة**"، التي تُعرّف بأنها: "قصة مكتوبة شعراً.. تتناول الآلهة، خلقها وصراعها، كما تتناول سيرة بطل (ملحمي) ومغامراته"، ثمّ بالمسرح الذي نشأ في أحضان عبادة الآلهة الأسطوريّين، ولاسيّما علاقتها بـــ"**المأساة**"، التي "أعطت الأسطورة صوتها، ومنحتها الأسطورة قوّتها"، وأخيراً "**الرواية**"، التي تُمثّل "استطالات للسرد الميثولوجي"، والتي مارست فكرة "**الأحدوثة**"(Episode) المميّزة للأساطير بعامة دوراً حاسماً في تشكّلها، بوصفها وسيلة تعبير جديدة تُضاف إلى ما سبقها من وسائل التعبير الدّالة على خصوبة المخيّلة البشرية وثرائها»[13].

لقد ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشر بالتزامن مع التطور العلمي ثورة فنية جمالية أعادت الاعتبار للأسطورة لا بوصفها شكلا فولكلوريا بدائيا، بل اعتبرت مسلكا إبداعيا، فقد «اعتبرها الرومنتكيون أصلا للفن والدين والتاريخ، فاستلهموا منها ما استطاعوا في إبداعاتهم»[14]، وقد ساعد تطور الأبحاث العلمية حول الأسطورة في توجيه نظرة الأدباء إليهاـــ، فأعادوا تشكيلها وطرحها من وجهة نظر معاصرة. يشرح إليوت Eliot أسباب استلهام الأدباء للأساطير بالبحث «عن إحداث توازن مستمر بين العالم القديم، والعالم الجديد، للسيطرة على تلك الصورة العريضة من العقم والفوضى التي تكوّن تاريخنا المعاصر. فالأسطورة تسمح للأدباء بالبحث عن الدلالات، الثابتة والمتحوّلة، وبالبحث عن المعاني المثلى، كما أنهما تسمح لهم بالتعبير، رمزيا عن الأفكار»[15]، ورهان التوظيف الأدبي للأسطورة يكمن في قدرة الأديب على التعبير بها عن مواقفه من عصره، وتحميلها تأويلات جديدة.

4. الأسطورة البدائية والأسطورة الأدبية:

في هذا السياق، نجد من الدارسين من يتحدث عن مصطلح "الأسطورة الأدبية"، ويفرقون بينها وبين "الأسطورة البدائية"، والواقع أن الأسطورة الأدبية هي نتاج انتقال الأسطورة البدائية من سجل المشافهة إلى سجل الكتابة، مع ما يتضمنه ذلك من تحويرات عليها، لا تطال نواتها الأسطورية.

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

يحدد مارك اجيلدنجر Marc Eigelginger سمات "الأسطورة الأدبية" في علاقتها باللغة، بكونها ككل أسطورة، تطرح نموذجا، وتتمتع ببعد كوني، «وهي في ابتعادها عن تقلبات التاريخ، تتحرر أيضا من قيوده. كما أنها تندمج في سياق اجتماعي وجماعي، دون أن تحذف خطاب الذاتية، ولا حكاية المغامرة الفردية. وزيادة على مضمونها الاجتماعي، فإنها تنفتح على معنى أخلاقي وديني ما دامت مرتبطة بالقداسة، والأسطورة الأدبية تعانق الفضاء والزمان في شموليتهما وتتخذ مكانا داخل الحنين إلى البدايات، أو داخل الرؤية الافتراضية للمستقبل، متبنية المنظور الوراثي أو الأخروي»[16]، لكن الأسطورة الأدبية لا تتمتع بنفس القداسة التي للأسطورة الأدبية، حيث يتلاشى فيها هذا البعد لصالح أبعاد جمالية مرتبطة بتكثيف التجربة، وتحقيق كلية التعبير، ومن خلالها إنما يسعى الأديب إلى جس نبض العصر، والإمساك بعصبه الحيّ، «معنى هذا أن الأسطورة تدخل في علاقة المبدع بعصره، كما هو الحال بالنسبة للأسطورة البدائية التي هي قضية جماعية تخص الرجل البدائي، وما حوله من ظواهر طبيعية وميتافيزيقية، وعن علاقة الأسطورة بالمبدع قال بيير برينال في معجمه، معجم الأساطير الأدبية، ما يلي: "ليست الأسطورة قضية فرد وإنما قضية جماعة وشراكة، ومن أجل الخلق الأدبي تدخل الأسطورة في علاقة الكاتب بعصره وبجمهوره، يبرز الكاتب تجربته من خلال الصور الرمزية التي تستطيع أن تسترجع أسطورة كانت محاطة من قبل ومعروفة من طرف الجمهور، مثلما يوضح صورة مدهشة»[17]. تفقد الأسطورة البدائية سمة القداسة عند تحوّلها إلى الكتابة، ودخولها ضمن الأسطورة الأدبية، فتصير دنيوية وفردية من حيث مبدعها، لكنها تحتفظ بالنواة الأسطورية الثابتة. تشكل هذه الفكرة حول نواة ثابتة ونماذج أو أنماط أولية في الأسطورة تعاود الظهور باستبدالات وانزياحات وديكورات مختلفة في الأدب عماد النقد الأسطوري، وقوام نظريته حول المخيلة الأدبية.

يعتبر تور ثروب فراي Northrop Frye الأدب « أسطورة متراحة عن الأسطورة الأولية وكل صورة في الأدب مهما تراءت لا جديدة، لا تعدو كونها تكرارا لصورة مركزية مع بعض الانزياح، ومع مطابقة كاملة أحيانا أخرى»[18]. يبدو أن مرجع الخيال هو التناقض الذي يكابده الإنسان بين ما هو عليه وما يريد أن يكونه، بين واقعه ورغباته، وهو يعود لفترة طفولة البشرية حيث لم يكن التناقض مدركا بشكل واضح. «في مستوى الوعي العادي يكون الفرد مركز كل شيء، ويكون محاطا من كل جزانبه بما ليس هو (...) وفي مستوى الحس العملي، أي في مستوى الحضارة، ثمة محيط بشري، عالم مثقف قليلا، ذو شكل بشري، مسيج بغابة من البحر والسماء. ولكن أي شيء يمكن تمثيله يصنع من الخيال، وحدود التخيل هي بشكل عام العالم البشري. وهنا نسترجع بوعي تام الحس الأصلي المفقود للتماهي مع ما يحيط بنا، حيث لا وجود لشيء خارج عقل الإنسان»[19]. وتلك سمة الزمن الأسطوري الأول، الذي انبثق فيه النظام الأدبي الذي أنتجته المخيلة البشرية.

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

5. التخييل الاسطوري في رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح:

يتخلق الفضاء الروائي لرواية "تلك المحبة" من ذرات رمل الصحراء تنشرها الريح مع أنفاس العاشقين، وتنحت من منحنيات الكثبان تضاريس جسد أنثوي متجدد باستمرار، تتغنى به كل كلمة في الرواية قصيد وله بأدرار التي هام بها لحبيب السايح فأقام لها صرحا تخييليا أسطوريا هو عينه "تلك المحبة".

تتحاور في الرواية مرجعيات كثيرة من التاريخ والموروث الشعبي للمنطقة، وتتمازج فيها الخرافة بالدين بالأسطورة، أما الجغرافيا فهي سيدة النص والمرجع، الواقع والمتخيل على حد سواء، إنها أدرار بحواظرها الثلاث؛ توات، قورارة وتيديكلت. من روح هذه المنطقة نفخ الروائي نشيد حب خالص انصهرت فيه شهوة الجسد، والتوق للخالق والتماهي بالوطن.

تطرح الرواية في تمثيلها للصحراء، ولحواضر منطقة أدرار التاريخية، مجموعة من الأساطير التي يمكن تصنيفها ضمن إجمالا ضمن الأساطير التي تروي مجيء حقيقة ما إلى الوجود، والرواية إجمالا تحاكي نمط أساطير التأسيس، التي ترتبط بتأسيس مدينة أو حاضرة أو إمارة أو وطن وما شابه. كما استخدم الروائي عناصر الأسطورة الكوسمولوجية، حين تحدث عن العناصر الأربعة وهي: الماء والنار والهواء، ومنها جبلت الجنيّة العاشقة، والتراب (الرمل) الذي جبل منه الإنسي المعشوق. ورد في الرواية: «أحدّث عما يقرّ في سمع الغوابر والحوادث ما كان الإنسان منها قد فعل، أو الجان قد صنع، فبين وطن هذا وذاك عرق من الرمل يمتد برزخا، كلما هبت الريح فالتقى بعض ذاك ببعض هذا وحدثت الخوارق، فكانت تلك المرأة التي فطرت على اجتماع الماء والنار والهواء، وكان ذلك الرجل الدرويش الذي حارت في طبعه العقول، يظهر بشرا سويّا، ويختفي ترابا رمليا في العرْق يتذرّى فيصير ألوانه الغروبية تلبسها تلك التي من وراء كفْر البشر تهبط في خيوط شمس ذلك الغروب دفقا من المحبّة تغمر قلبه كلما كان البدء»[20]. والرواية حافلة بأساطير حول ظهور العين، وبناء الفوقارات، وعن المرأة والمدينة والنخلة، وكل منهن قد تكون الأخرى.

ومما يميّز الأساطير في هذه الرواية أنها تتوالد على نفس الشاكلة، فالتخييل الأدبي لا يكتسب فاعلية خلاقة باعتبار أنه يكتفي بإعادة إنتاج الأنماط العليا، وبهذا المبدأ المتمثل في إعادة الإنتاج يعرّف فراي الخيال الفني عموما، يقول: «عندما نفكر بالخيال على أنه القدرة التي تنتج الفن، نفكر به غالبا على أنه المبدأ المصمم والبنيوي في الخلق، أي القدرة على توحيد أشياء متباينة في رأي كولردج. إلا أن الخيال، بهذا المعنى، إذا ترك لنفسه، يستطيع ان يصمّم فقط. فالتخيل الاعتباطي نادر جدا في الفنون»[21]. تجسد الأساطير نمطا واحدا لحالة عشق بين إناث فاتنات ورجال ذوي ميزات خاصة، حيث تتميز هؤلاء النسوة بفتنة وغواية وشبق غير محدود، تحاك حولهن الأحاديث العجيبة، وبعضهنّ جنيّات، مثل مريوشة عشيقة القوّال، وقصة مريوشة في الأصل قصة شعبية متداولة، لحنت وغنّيت،

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وأدرجها الروائي في عمله هذا، من اجتماع عناصر الأنوثة والذكورة يتم الإعلان عن انتيثاق الحياة، حياة تتجدد مع كل وصل بين المحبين، وفي كل موسم يؤتي فيه النخيل طلعه.

تصطنع الرواية، إذا، فضاء رمزيا تتفاعل فيه الصور والرموز والأساطير والأنماط العليا التي تتجسد في أشكال التعبير التراثية عموما، وفي الثقافة الشعبية على وجه التحديد، بوصفها أقدر على بلورة و إنتاج وتفعيل ثمرات الخيال الشعبي بفطرته وبجذوره الضاربة في اللاوعي الجمعي، ومن أمثلة التخييل الأسطوري في الرواية ما ذكر عن الأميرة الزناتية المسخوطة، وهي كما سنلاحظ تتقاطع مع أسطورة بينلوبي التي قبعت منتظرة زوجها وهي تنقض في النهار ما غزلته من الصوف ليلا. ورد في الرواية: « (...) وحواك أميرة زناتية انتظرت في الحجبة أوبة زوجها من المسجد العتيق قرنا من الزمن، مثلما دخلته أول مرة عروسا في الواحة الحمراء، لم تحل منها شعرة واحدة على الزينة والجمال والشوق والآمال باقية، فإنه كان قد استقبل المحراب الخارجي في القصر السفلي وثمة أمّ العشاء، فلما سلّم واستدار ألفى خلائق هي للضوء المتسرب من الشقوق ممزوجا بألوف ألوف الذرات الغبارية المتسابحة تُبدي هيئتهم للإنس وللجن تجعل حركتهم، حيّوه بالسلام، وأحاطوا به ثم رفعوه فاخترقوا به جدار المصلى مثلما يخترق الظلّ.

فمن زاعم أن العفاريت تبدلها كل عشرين عاما عمرا بعمر لتردّها إلى شبابها، ومن مرجف بأن زوجها يأتيها في هيئة تلك الريح الشرقية العاصفة لا تبقي حشرة ولا دابة تزحف، يلقّح النخيل وإناث الطيور والنبت المثمر والنساء العواقر..»[22] .

وظف الروائي هذه الأساطير لتمثيل منطقة أدرار بصحرائها وفوقاراتها وعيونها وبواباتها، وحواضرها التاريخية. إن تخيل المدن أماكن رمزية، بل أسطورية عمليات أدبية قد يعود قدمها إلى بداية التحضر، ومرحلة تأسيس الحياة المدينية، على أن الصور الخيالية للمدينة ليست نسخا أدبية مجردة عن العالم الخارجي، بل تميل على النقيض من ذلك إلى أن تكون تجليات لأفكار تعبّر عن مجتمع بعينه، وعن حقبة تاريخية محددة[23]. يقرّ فراي بالتجديد في الأدب ضمن حدود ضيقة ترسمها بصرامة التقاليد الأدبية والأنماط العليا، ويبقى هامش التجديد منحصرا في الاستبدالات أو الانزياحات والتكييفات التي يقوم بها الأديب استجابة لعصره، فدواعي التجديد نابعة من العصر الذي يعيش فيه الأديب. «إن الجديد هو ذاك الذي يعيد علينا هذه الأسطورة بعد تحقيق شيء من "الانزياح "الذي يمكن القول أنه تعديل تفرضه ظروف العصر والحياة الاجتماعية على الأديب»[24].وهذا ما حاول الحبيب السايح فعله في هذه الرواية التي تحتفي بأدرار وتطمح لكتابتها أدبيا، حيث يمزج بين التاريخ والأسطورة، ويخضع الأنماط الأولية للانزياحات مضفيا عليها "ديكورات" المنطقة وفي أحيان كثيرة يستقي من المخيلة الشعبية لسكانها، أما الثيمة المحورية في الرواية فهي ثيمة المرأة الفاتنة العاشقة والمعشوقة والتي تمثل الوطن، وقد هام بها الروائي، فسطر هيامه في

رواية هي عبارة عن خطاب ايروتيكي يتجاوب وأصداء صورة الصحراء في المتخيل الاستشراقي، على أنه يشدنا من خلال احتفائه بالجسد الأنثوي في الوقت نفسه إلى العصر الأمومي حين كانت السيادة للمرأة.

6. الاستنتاج: نخلص في هذا المقال إلى مجموعة من النتائج نذكر منها:

- يحضر الخيال في الأسطورة كما في الأدب بوصفه فعالية معرفية بالغة الأهمية.
- تروي الأسطورة تاريخا مقدسا، وتفسر حدثا جرى في زمن البدايات، أما وظيفتها فهي منح معنى لأوجه النشاط البشري.
- تنبع كل من الاسطورة والأدب من الأصل واحد، ويشتركان في نمط التخييل وبنيته.
- لا يعدو الأدب أن يكون انزياحا عن الأسطورة البدائية التي انتقلت من سجل المشافهة إلى سجل الكتابة، مع ما يتضمنه ذلك من تحويرات عليها، لا تطال نواتها الأسطورية وقد فقدت سمة القداسة.
- يلجأ الروائي لحبيب السايح إلى الأسطورة الكوسمولوجية وأساطير التأسيس لتفسير نشأة أدرار وحواضرها، وظواهر أخرى في الصحراء مرتبطة بها على غرار العين والنخلة والفوقارة.
- يشتغل التخييل الأسطوري في رواية "تلك المحبة" وفق مبدأ إعادة إنتاج الأنماط العليا، حيث تتوالد فيها الأساطير على نفس الشاكلة، من خلال احتفائه بالجسد الأنثوي، ويشدنا في الوقت نفسه إلى العصر الأمومي حين كانت السيادة للمرأة.
- يضفي الروائي تنويعات على صوره استجابة لعصره، وتحقيقا لغايات تعبيرية مرتبطة براهنه.

5. الخاتمة:

نؤكد في الختام على أن الأسطورة تلعب دورا مهما في عملية التخييل الأدبي عامة، والروائي على وجه الخصوص. وقد استفاد الروائي لحبيب السايح من كل الزخم الأسطوري والتاريخي والتراثي لمدينة أدرار ليرسم من خلال روايته لوحة محبة خالصة.

6. الهوامش:

[1] كارم محمود عزيز: **أساطير العالم القديم**، مكتبة النافذة، مصر، ط1، 2007، ص13.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**، 1990، المجلد الرابع، ط1، بيروت، دار صادر، ص363، 364.

[3] انظر لوليدي بونس: **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية**، 1996، ط1، المغرب، مطبعة أنفو برانت، الصفحات من 52 إلى65.

[4] المرجع نفسه، ص60.

[5] غريمال بيار: **الميتولوجيا اليونانية**، ترجمة : هنري غريب، 1982، ط1، بيروت ــ باريس، منشورات عويدات، ص7.

[6] إلياد مرسيا: **مظاهر الأسطورة**، ترجمة : نهاد خياطة، 1991، ط1، سوريا دار كنعان للدراسات والنشر، ص10.

المجلد: (17)	العدد: (02)	السنة: 2025	صفحات المقال: 410–420	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

[7] المرجع نفسه، ص12.

[8] لعور هجيرة (بنت عمار) : **رسالة الغفران في ضوء النقد الأسطوري**، 2009، ط1، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص71.

[9] أليكسي لوسيف: **فلسفة الأسطورة**، ترجمة : منذر بدر حلوم، 2000، ط1، اللاذقية – سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص112.

[10] المرجع نفسه، ص114.

[11] المرجع نفسه، ص115.

[12] المرجع نفسه، ص116.

[13] الصالح نضال: **النـــزوع الأســـطوري في الروايـــة العربيـــة المعاصـــرة**، 2001، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص16.

[14] عبد الله محمد حسن: **أساطير عابرة الحضارات**، 2000، القاهرة –مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص22.

[15] د.يونس لوليدي: **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية**، ص38.

[16] المرجع نفسه، ص37.

[17] لعور هجيرة (بنت عمار) : **الغفران في ضوء النقد الأسطوري**، ص72.

[18] فراي نورثروب: **نظرية الأساطير في النقد الأدبي**، ترجمة: حنا عبود، 1987، ط1، سوريا، دار المعارف، ص17.

[19] المرجع نفسه، ص18.

[20] الرواية، ص7.

[21] فراي نورثروب: **الماهية والخرافة؛ دراسة في الميثولوجيا الشعرية**، ترجمة: هيفاء هاشم، 1992، سوريا، منشورات وزارة الثقافة، ص43.

[22] السايح لحبيب: **تلك المحبة**، 2007، الجزائر، دار الريحانة للكتاب، ص7.

[23] زيكامب بيرغيت (1997)، «بيروت في الأدب المعاصر؛ من الأسطرة إلى تحطيم الأسطورة»، **مجلة الآداب**، العدد 12/11، 1997، ص48.

[24] عبود: حنا: **النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري**، 1999، سوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص108.

7. قائمة المصادر والمراجع:

– الكتب:

1- ابن منظور(1990): **لسان العرب**، المجلد الرابع، ط1، بيروت، دار صادر.

2- بيار غريمال(1982) : **الميتولوجيا اليونانية**، ترجمة : هنري غريب، ط1، بيروت ــ باريس، منشورات عويدات.

3- حنا عبود (1999) : **النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري**، سوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

4- السايح لحبيب(2007) : **تلك المحبة**، الجزائر، دار الريحانة للكتاب.

5- لوسيف أليكسي (2000) : **فلسفة الأسطورة**، ترجمة : منذر بدر حلوم، ط1، اللاذقية – سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع.

6- كارم محمود عزيز(2007) : **أساطير العالم القديم**، ط1، مصر، مكتبة النافذة.

7- محمد حسن عبد الله (2000) : **أساطير عابرة الحضارات**، القاهرة –مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

8- مرسيا إلياد(1991): **مظاهر الأسطورة**، ترجمة : نهاد خياطة، ط1، سوريا دار كنعان للدراسات والنشر.

9- نضال الصالح (2001) : **النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

10- نورثروب فراي (1992) : **الماهية والخرافة؛ دراسة في الميثولوجيا الشعرية**، ترجمة: هيفاء هاشم، سوريا، منشورات وزارة الثقافة.

11- نورثروب فراي (1987) : **نظرية الأساطير في النقد الأدبي**، ترجمة: حنا عبود، ط1، سوريا، دار المعارف.

12- هجيرة لعور (بنت عمار) (2009): **رسالة الغفران في ضوء النقد الأسطوري**، ط1، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

13- يونس لوليدي (1996): **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية**، ط1، المغرب، مطبعة أنفو برانت.